الأسس الفكرية للعنف عند الولاة المسلمين
الحجاج بن يوسف الثقفي أنموذجاً

د. نورة كطاف هيدان*

الملخص

يتطرق البحث الموسوم بـ (الأسس الفكرية للعنف عند الولاة المسلمين الحجاج بن يوسف الثقفي أنموذجاً) إلى موضوع العنف؛ وذلك عبر توضيح المنهج السياسي للحجاج بن يوسف الثقفي، والذي يرتكز على توظيف القوة والردع والإرهاب على الخصوم للحصول منهم على الولاء والتأييد للسلطة السياسية؛ وذلك انطلاقاً من فرضية أساسية مفادها: (إن العنف ظاهرة ملازمة للسلطة السياسية التي كان الدفاع عنها وحمايتها من أهم الأسس الفكرية التي استند إليها الحجاج بن يوسف الثقفي في ممارسته للعنف)، من خلال تقسيم البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

يتناول المبحث الأول الذي حمل عنوان الحجاج والعنف في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر وذلك عبر مطلبين: أختص الأول في مفهوم العنف في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، فيما اعتنى المطلب الثاني بحياة الحجاج بن يوسف الثقفي ونشأته الفكرية والسياسية.

وتطرق المبحث الثاني لمظاهر استخدام العنف لدى الحجاج بن يوسف الثقفي، عبر تقسيمه على مطلبين: ركز الأول على العنف لإغراض سياسية، في حين تصدى المطلب الثاني لبيان العنف لإغراض أخرى.

أما المبحث الثالث فتم فيه مناقشة دوافع استخدام العنف لدى الحجاج، من خلال توزيعه على مطلبين: اعتنى الأول بالدافع السياسي، بينما تناول المطلب الثاني الدافع الديني.

- * مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية/بغداد .

Abstract

The study which is titled: (the intellectual foundations of violence when the governors Muslims Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi model) to the subject of violence ; through clarifying the political approach of the pilgrims bin Yusuf al-Thaqafi , which is based on the employment of force , deterrence and terrorism liabilities for whom loyalty and support of political power ; and that's Starting from the essential hypothesis indicate that: (The violence inherent in the phenomenon of political power , which was to defend and protect the intellectual foundations of the most relied upon by Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi in the exercise of violence) , by dividing the study on the front and three sections and a conclusion:

The first section deals with titled Hajjaj and violence in contemporary Islamic political thought, through two demands: I specialize in the concept of violence in contemporary Islamic political thought, took care of the second requirement in the lives of Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi and intellectual and political origins.

Turning to the second section, the manifestations of the use of violence of Hajjaj bin Yusuf al-Thaqafi, across the divide on two demands: the first focused on the violence for political purposes, while the second addressed the requirement for a statement of violence for other purposes.

In the section three; it discussed the motives of the use of violence of Hajjaj, through distribution to two demands: the first took care of political motivation, while taking second requirement religious motive.

المقدمة:

يعد العنف ظاهرة متفشية في الاجتماع البشري عبر التاريخ، فعنف الإنسان ضد أخيه الإنسان ليس طارئاً في حياتنا اليوم، بل هو سلوك بيولوجي وسياسي واجتماعي وديني وثقافي، صاحب رحلة الإنسان في الحياة، وبرغم أن رسالة الأديان عامة ومقاصدها الكبرى كانت وما زالت هي إشاعة السلم والتراحم والمحبة بين الناس، والسعي لتجفيف منابع العنف وأشكاله، إلا أن الطرق التكوينية للحكام من الوجهة المعرفية والنفسية، ذات الطابع الأحادي، مسخت الروح التسامحية للإنسان فاستحال العنف لدى الحكام إلى إعصار عاصف يجتاح الحياة، ويحطم كافة المكاسب الحضارية والمعرفية للبشرية، في إطار سادية وجدانية ومعرفية تتلذذ بقتل الضحايا واستباحتهم، لذا ارتبطت ظاهرة العنف في المجتمعات الإسلامية بأسماء أخذت حيزاً مهماً من الذاكرة أمثال ولاة المسلمين في الدولة الأموية، والعباسية، ودول المماليك، والدولة العثمانية، وفي التاريخ المعاصر، وأبرز هؤلاء الولاة هو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي هو محل الدراسة.

إشكالية البحث:لا يمكن لأي دراسة من هذا النوع أن تكون بعيدة عن الصعوبات والعراقيل التي تعيق حركتها في تحقيق الهدف الذي تتوخاه وهو استجلاء كل الآراء والمواقف الخاصة بهذه الشخصية ومن ابرز هذه الصعوبات:

١. عدم وجود اتفاق بين المفكرين في تحديد هذه الشخصية، وهنا تكمن المشكلة في كيفية التأكد من صحة ما يُنسب إليه.
٢. إن هذه الدراسة تعالج واقعة تاريخية قديمة لا يمكن الجزم بالمعلومات المتوفرة طالما إنها بعيدة تاريخياً، ولا توجد آليات للتحقق من صحة هذه المعلومات سوى الآليات المستخدمة في علم التاريخ.

فرضية البحث: انطلقت الدراسة من فرضية مفادها: (إن العنف ظاهرة ملازمة للسلطة السياسية التي كان الدفاع عنها وحمايتها من أهم الأسس الفكرية التي استند إليها الحجاج بن يوسف الثقفي في ممارسته للعنف).

منهجية البحث: اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي؛ وذلك من خلال معرفة واقع الحجاج وظروفه السياسية بالإضافة إلى الحديث عن آلياته ومبرراته في استخدام العنف للوصول إلى استنتاجات خاصة بظاهرة العنف وملازمتها للسلطة السياسية.

المبحث الأول: الحجاج والعنف في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر.

المطلب الأول: مفهوم العنف في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر

أن ظاهرة العنف والتلذذ به نشأت في بيئة الحكومة، وسياسة العصابات واقتناص المنصب، وقامت على جذور عائمة في جو أمزجة الخليفة المترنح بين يقظة ظالمة وغفلة أظلم في ظرف حرج للغاية، يعيش فيه المسلمون معاركهم الدامية بين الروم والفرس، وبين الداخل المليء بالآم وأذى الولاة، إننا هنا نتحدث عن سياسة بني أُمية المثال الذي لم يأتي بعده في ميدان الظلم ومصادرة الحقوق مثيل بل كان نتيجة طبيعية لسُنة سيئة دام مسلسلها بدوام الدافع، وانحرافٌ لتلك النقطة التي حُرِفت فيها بني أُمية مسار التاريخ، وقبل الحديث عن العنف في سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي لابدَّ من تعريف العنف لغةً واصطلاحاً.

١. **العنف لغةً**: هو الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهي ضد الرفق، ويقال عنفه تعنيفاً إذا لم يكن رفيقاً في أمره، واعتنف الأمر: أخذه بعنف[١]، ولم ترد كلمة العنف في القرآن الكريم إلا إنها وردت- وإن كان نادراً في الأحاديث النبوية الشريفة كقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: " أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على ما سواه"[٢]، وعنف فلاناً: أي لامه بشدة وعنفه وعتب عليه، واعتنف الأمر بمعنى أخذه بالعنف والشدة، واعتنف الشيء: أي ابتدأه واستقبله، جهله واتاه ولم يكن له به علم، والعُنف، والعَنف، والعِنف: تحمل نفس المعنى[٣].

٢. **العنف اصطلاحاً**: يُعرف العُنف بأنه كل تصرف أو سلوك بشري ينزع إلى استخدام قدر من القوة القسرية بما في ذلك الإكراه والأذى الجسدي الذي يتضمن الضرب والأذى النفسي وغيرهما[٤]، كما يُعرف بأنه" استخدام وسائل ضغط مختلفة لتسوية النزاعات، بقطع النظر عن مدى شرعيتها، أو لإرغام الآخر على الخضوع لإرادة الغير أو التخلي عن قناعاته الشخصية"[٥]، وفيما يخص العنف السياسي الذي هو محل الدراسة فقد عرفه (نيبورغ): بأنه أعمال التمزيق والتدمير والأضرار التي يكون غرضها واختيار أهدافها أو ضحاياها والظروف المحيطة بها وانجازها وآثارها ذات

دلالات سياسية، أي تنحو إلى تغيير سلوك الآخرين في موقف تساومي له آثار على النظام الاجتماعي[٦].

بينما عرفه (هندريش): بأنه الاستعمال المدمر للقوة ضد الأشخاص أو الأشياء والموجه لإحداث تغيُّرات في سياسة الحكومة أو القائمين على أمرها[٧].

المطلب الثاني: حياة الحجاج بن يوسف الثقفي ونشأته الفكرية والسياسية

أولاً: حياته

ولد الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن الحكم الثقفي في منازل ثقيف بمدينة الطائف في عام الجماعة ٤١هـ، وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج، وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي[٨]، وهو من الشخصيات العسكرية التي خدمت الخليفة عبد الملك بن مروان في حروبه ضد معارضيه وأعدائه، وقد لَعِب دوراً كبيراً في تثبيت أركان الدولة الأموية[٩]، طاغية مُتجبر عُرف بـ" المُبير" [*]، وتدل كثير من الوقائع على ميراث الرعب الهائل الذي خلفه، وقد كانت العلاقة بين الحجاج وأهل العراق هي من أكثر العلاقات تعقيداً وترويعاً في التاريخ الإسلامي، فالحجاج وُلّيَ على العراق كارهاً لأهلها، وهُم له كارهون، واستمرت العلاقة بينهما كزواج كاثوليكي بالإجبار، لا يجوز فيه الطلاق، ولا أمل للفكاك منه إلا بموت أحد الزوجين.

وكان الحجاج دائم السبّ لأهل العراق في خطبه، فكثيرة خطبه التي يذكر فيها أهل العراق بشكل سيء والتي يرى فيها العراقيون إساءة إلى اليوم، فدائماً كان يذكرهم " يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق.." [١٠]، إلى آخر خطبه، والتي يتمعن فيها في ذكر صفاتهم " فإنكم قد أضجعتم في مراقد الضلالة.." [١١]، وغير ذلك من الخطب الكثيرة فيهم، كراهةً منه لهم، وكراهةً منهم له، ومن ذلك أنه لما أراد الحَجّ استخلف أبنه محمد عليهم، وخطب فيهم أنه أوصى ولده بهم بغير وصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأنصار، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، فقد أوصاه ألا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم، وقال لهم: "

أعلم أنكم تقولون مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفكم لي، لا أحسن الله لك الصحابة، وأرد عليكم: لا أحسن الله عليكم الخلافة "[١٢].

هذا وقد كانت لرجل ثقيف منجزات مشهودة، فالحجاج منظم دولة ومجتمع مرموق، فقد أولى اهتماماً بتنظيم البريد السريع بإنشاء سلسلة مناظرات أُقيمت بين واسط وبحر قزوين لنقل الأخبار بالإشارة، وقد استعمل فيها الدخان نهاراً والنار ليلاً[١٣]، وفي مواجهة نقص الإنتاج الزراعي الناتج عن هجرة الفلاحين أنشأ الحجاج مشروعات ري كبرى صُممت بطريقة تجمع بين سكان المدن وسكان الريف، ومن أضخم هذه المشروعات نهر حفره من الفرات عند بابل، وسماه نهر النيل مضاهاة لنيل مصر، وبنى حول النهر مدينة سماها مدينة النيل استمرت عامرة عدة قرون ثم تقلصت بتمصير الحلة المزيدية في أوساط القرن الخامس الهجري، وحفر الحجاج نهراً آخر من دجلة في جنوب وسط العراق سماه نهر الصين، نسبةً إلى قرية هناك تُعرف بهذا الاسم، ونهر ثالث هو نهر الزاب وهو يختلف عن الزاب الأعلى أو الأسفل، واستزرع البقاع المحيطة بهذين النهرين[١٤]، وفي بنائه لمدينته واسط أظهر الحجاج خصاله الشخصية كحاكم متمدن، كان الغرض من تمصير المدينة أمنياً للابتعاد عن الكوفة المُعادية له، لكنه بذل جهداً لاختيار موضع ملائم حضرياً ضمن الموقع الاستراتيجي الذي تحدد تبعاً لضرورات الأمن[١٥].

ثانياً: نشأة الحجاج الفكرية والسياسية

نشأ في الطائف، وتعلم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه، يعلم الفتية القرآن والحديث لكنه لم يكن راضياً بعمله هذا على الرغم من تأثيره الكبير عليه[١٦]، وكانت الطائف في تلك الأيام بين ولاية عبد الله أبن الزبير وبين ولاية الأمويين، لكن أصحاب أبن الزبير تجبروا على أهل الطائف فقرر الحجاج الانطلاق إلى الشام حاضرة الخلافة الأموية المتعثرة التي تركها مروان بن الحكم نهباً بين المتحاربين.

وقد تختلف الأسباب التي دفعت الحجاج إلى اختيار الشام مكاناً ليبدأ طموحه السياسي منه، على الرغم من بعد المسافة بينها وبين الطائف- فالطائف كانت

أشبه بالمجتمع البدوي، في حين الشام كانت ذو حضارة مدنية- وقرب مكة إليه، لكن يُعتقد أن السبب الأكبر هو كراهته لولاية عبد الله أبن الزبير، وإظهاره الولاء للدولة الأموية قبل أن ينتظم في سلكها، وفي الشام التحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من مشاكل جمة منها: سوء التنظيم في السلك العسكري، واستخفاف الشرطة بالنظام القائم، وقلة المجندين، فأبدى حماسة وانضباطاً وسارع إلى تنبيه القادة لكل خطأ أو خلل وأخذ نفسه بالشدة، فقربه روح بن زنباع (**) قائد الشرطة إليه ورفع مكانته ورقاه فوق أصحابه، فأخذهم بالشدة وعاقبهم لأدنى خلل، وسير أمورهم بالطاعة المطلقة للحكام، ولمس روح بن زنباع فيه العزيمة والقوة فقدمه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، إذ أن الشرطة كانت في حالة سيئة وقد استهون جند الإمارة عملهم فتهاونوا، فأهمَّ أمرهم عبد الملك، وعندها أشار عليه روح بن زنباع بتعيين الحجاج عليهم فلما عينه أسرف في عقوبة المخالفين وضبط أمور الشرطة، فما عاد منهم تراخ ولا لهو إلا جماعة روح بن زنباع فجاء الحجاج يوماً على رؤوسهم وهم يأكلون فنهاهم عن ذلك في عملهم لكنهم لم ينتهوا ودعوه معهم إلى طعامهم فأمر بهم فحُبسوا وأحرق سرادقهم(***) فشكاه روح بن زنباع إلى الخليفة فدعا الحجاج وسأله عما عمله على فعله هذا فقال: أنت من فعل يا أمير المؤمنين، فأنا يدك وسوطك وأشار عليه بتعويض روح بن زنباع دون كسر أمره(١٧).

ويروى " أنه مرَّ يوماً بقاص يُحدث الناس عن سيرة أبي بكر وعمر بن الخطاب فاستاء وقال: ما يفسد الناس على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس ويذكرون سيرة أبي بكر وعمر فيخرجون (يثورون) على أمير المؤمنين، والله لو صفا لي الأمر لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل أن أقتل هذا وأشباهه"(١٨)، ويفسر هذا التدخل من الحجاج أمراً أصدره عبد الملك بن مروان بمنع الكلام عن سيرة أبو بكر وعمر.

وكان عبد الملك قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة الخارجين على الدولة فضم الحجاج إلى الجيش الذي قاده بنفسه لمحاربة مصعب بن الزبير(****)، ولم يكن أهل الشام ينضمون إلى الجيوش فطلب الحجاج من الخليفة أن يسلطه عليهم، ففعل فأعلن الحجاج أن أيما رجل قادر على حمل السلاح ولم يخرج معه أمهله ثلاثاً ثم

قتله وأحرق داره ونهب ماله، ثم طاف بالبيوت بحثاً عن المتخلفين، وبدأ الحجاج بقتل أحد المعترضين عليه فأطاع الجميع وخرجوا معه بالجبر لا الاختيار[١٩]، حيث اجتمع جيش كبير للحجاج حتى أنه لما نظر أصحاب مصعب إليه تواكلوا، وشملهم الرعب وداخلهم الخوف والفزع[٢٠]، فأمكنه أن ينتصر على مصعب ويقتله عام ٧١هـ، ويقتل مصعب صُفي العراق لعبد الملك بن مروان.

ومن هنا بدأت الوظيفة السياسية للحجاج فقد عهد إليه عبد الملك بقيادة جيش جرار إلى الحجاز للقضاء على انفصال عبد الله أبن الزبير، وأنجز مهمته على الوجه المطلوب فأعاد الحجاز إلى طاعة عبد الملك، فقد حاصر ابن الزبير في الكعبة وأمر برميها بالمنجنيق[٢١]، وحدث أن تجمعت غيوم راعدة فنزلت صاعقة على جيش أهل الشام وقتلت عدداً منهم، فتطير الشاميون واعتبروا ذلك رداً إلهياً على قصف الكعبة، فقال لهم الحجاج: أنا ابن تُهامة وهذه صواعقها، وطلب إليهم التريث حتى يصيب عدوهم ما أصابهم..، وفي اليوم التالي نزلت صاعقة على جيش ابن الزبير وقتلت عدداً منهم...، وبذلك استطاع تجاوز الأزمة في معسكره[٢٢]، وعينه عبد الملك والياً على الحجاز بعد تصفية عبد الله ابن الزبير، ثم وجد كفاءات تابعه الجديد أوسع مما يحتاج إليه في الحجاز فولاه على العراق، وكانت ولاية العراق أيام الأمويين مركز المشرق كله فصار الحجاج حاكم البقاع الممتدة ما بين العراق ونهايات الثغور في آسيا الوسطى والهند، فكان بمثابة إمبراطور ثانٍ للأمويين.

وكان العراق منذ اندلاع حركة المعارضة في الإسلام أيام الخليفة قد صار مقرها الدائم، ومثلما كان الوالي الأموي ينظم منه نشاطات المشرق السياسية والعسكرية كان المعارضون من الشيعة والخوارج ينظمون حركة المعارضة في الولايات والأطراف مع الامتداد شرقاً وغرباً، وقد ترتب على الحجاج وهو يواجه مسؤولياته الجسام في إدارة إمبراطوريته لحساب الأمويين أن يتعامل مع حركة المعارضة بالقمع الدموي المنفلت[٢٣]، وليس من المعلوم ما إذا كان الحجاج ينطوي على نزعة دموية أو أنه تفنن القمع تبعاً لمطالب أمن الدولة الاستبدادية، وبالرجوع إلى مثال زياد ابن أبيه نقف على حالة مرضية ناشئة عن كون زياد أبناً غير

شرعي وهي حالة استغلها معاوية حين سلمه العراق بعد أن ألحقه بأسرته وصار أبناً شرعياً لأبي سفيان، بينما الحجاج لم يُعانِ من هذه العقدة فقد ولد لأب شرعي ونشأ نشأة سوية وسط عشيرته المرموقة الجانب، ففي خطابه الأول على منبر الكوفة يوم استلم ولاية العراق قال الحجاج عبارته المشهورة: " إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها" [٢٤]، في هذه الصورة البلاغية التي أعلن بها سياسته حلَّق الحجاج في خياله الأدبي إلى النقطة التي يتكامل فيها أديب مبدع مع جلاد متفرد، حيث يقترب في إبداعيته من الجمع في الصورة الأدبية بين رؤوس البشر وعناقيد الكروم التي نضجت للقطاف.

ويمكننا الاستدلال على المنهج السياسي للحجاج بن يوسف الثقفي والذي يرتكز على توظيف القوة والردع والإرهاب على الخصوم للحصول منهم على الولاء والتأييد للسلطة السياسية من خلال خطبة الحجاج بالكوفة عندما دخل العراق لأول مرة حيث يذكر المؤرخون[٢٥] بأنه حينما دخل الكوفة إذ أتى أحدهم إلى مسجد الكوفة والناس مجتمعين فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلداً سيفاً متنكباً قوساً يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: إلا أحصبه لكم، فقالوا: أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا أبن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال يا أهل الكوفة أما والله إني لأحمل الشر بحمله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله وإني لأرى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق، ثم قال: إني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لي بالشنآن ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة، وجريت إلى الغاية القصوى وأن أمير المؤمنين وأطال الله بقاءه، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرَّها عوداً واصلبها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في

الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروءة، ولاعصبنكم عصب السلمة، ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت فإياي، وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات، وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك، أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده، وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم اعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني اقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكتُ دمه ونهبت ماله وهدمت منزله"[٢٦].

ومن المعروف عن العراق أنه لا يخضع لحاكم خارج العراق، وفي عصر بني أُمية كان العراق مصدر إزعاج السلطة لأن أغلب سكانه كانوا من الشيعة ولذلك كان على الخليفة أن يختار شخصاً لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، فعُيّن الحجاج لكن أهل العراق سخروا من هذا التعيين واعتقدوا أن الحجاج إعرابي لا يعرف شيئاً في السياسة وعَلِمَ الحجاج بذلك وتوجه إلى العراق مُتلثماً ووصل المسجد في الكوفة ومن على المنبر ألقى هذه الخطبة معرفاً بنفسه ومستخدماً سياسة التهديد والوعيد، فإذا كانت كلمات الخطبة بهذه القسوة والشدة فكيف الأفعال التي تدل عليها.

بدأ الحجاج بالتعريف عن نفسه فهو القادر على كشف الأمور وتخطي الصعوبات ثم أكد أنه سيقتل عدداً منهم وها هو يتخيل الدماء تسيل ما بين الرؤوس والأعناق وحتى لا يظن أنه فقط يقول ولا يفعل فإنه أكد أنه ليس كما يظنون فهو صاحب الخبرة والقائد المحنك وهو شديد جداً ولا فائدة من تجربته لأنه لا ينوي إلا وفعل، ولا يقدر إلا وقطع، وسيستخدم معهم سياسة البطش كضرب السلمة أو ضرب غرائب الإبل (وهي الجمال التي تخرج من مجموعتها، وتدخل في مجموعة أخرى وهذه الجمال لا تخرج إلا بالضرب الشديد) ثم يؤكد لهم أنه لا تنفع معهم إلا سياسة الشدة والبطش فهم كأهل مكة التي كان الله تعالى يرزقهم لكنهم كفروا، وهكذا هو وضع أهل العراق كان الخليفة يعاملهم بالحسنى لكنهم لم يُقدروا ذلك، ولذلك

سيصيبهم ما أصاب أهل مكة ثم يقول لهم قد إن الذي أقوله مجرد كلام لكنني أُقسم لكم إني أُلحق أقوالي بالأفعال وإذا نويت قمت بما نويت وسأوزع عليكم ما يلزمكم من رواتب المعركة ضد الخوارج، وإذا تخلف أحدكم سأقطع عنقه، تشتمل خطبة الحجاج على مضامين عديدة تؤكد على أنه كان أداة ناجحة لتدعيم السلطة السياسية، لعل أبرزها:

١. التعريف بنفسه: أن أهل العراق اعتقدوا أن الحجاج بدوي لا دراية له في أمور السياسة والحكم، لذلك استهتروا بقدومه خاصةً إنهم هزموا أقوى الجيوش لذا كان على الحجاج أن يعرفهم بنفسه، ويؤكد لهم أنه قادر على تخطي كل الصعاب وأنه رجل لا يعرف قلبه الرحمة ويحب إراقة الدماء، ولذلك يجب عدم تجربته لأن ذلك سيؤدي إلى حفظ الأرواح أما التجربة فستؤدي إلى الموت.
٢. سياسة العنف: بيَّن الحجاج منذ البداية أنه سيتبع معهم سياسة الدم واللحم وسيعاقبهم عقاباً شديداً على أقل فعل وأنه إذا قال فعل وإذا خطط نفذ.
٣. سبب اختياره: يقول الحجاج أن الخليفة بحث عن أشد الناس وأكثرهم قسوة ليختاره والياً على العراق فلم يجد أقسى من الحجاج ولذلك اختاره لهذه المهمة؛ لأن العراق شعب الضلال والكفر والفتن.
٤. فرض طاعته: بيَّن الحجاج لأهل العراق أنه لا مفر من طاعته ولذلك عليهم محاربة الخوارج وكل من تخلف تُضرب عنقه.

وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي:

يروى أن الحجاج لما حضرته الوفاة أحضر مُنجماً فقال له: هل ترى في علمك ملكاً يموت؟ قال: نعم، ولست هو، فقال: وكيف ذلك؟ قال المنجم: لأن الذي يموت اسمه كُليب، فقال الحجاج: أنا هو والله، سمتني أمي بذلك[٢٧]، فأوصى بعد ذلك، وكان مرضه بالأكلة وقعت في بطنه، وأقام الحجاج على هذه الحالة بهذه العلة خمسة عشر يوماً، وتوفي في شهر رمضان وقيل في شوال سنة ٩٥هـ، وعمره أربع وخمسون سنة[٢٨].

المبحث الثاني: مظاهر استخدام العنف لدى الحجاج بن يوسف الثقفي

أستُخدم العنف في العصور الإسلامية المختلفة لإغراض شتى تقسم على قسمين رئيسين:

أولاً: العُنف لإغراض سياسية

ثانياً: العُنف لإغراض أخرى.

المطلب الأول: العُنف لإغراض سياسية

يذكر أن العنف السياسي قد توسع في العهد الأموي الذين واجه في زمان معاوية بن أبي سفيان عدة مشاكل أهمها:

١. موقف جمهور المسلمين الذين اعتادوا على حكم الشرع أيام الإمام علي (ع).
٢. موقف العرب الذين لم يتعودوا الخضوع لأي سلطة بالقسر والإكراه.
٣. معارضة أهل العراق المتمسكين بولاية الإمام علي (ع) ووثاقتهم بأن الحكم الإسلامي فيهم ومنهم يؤخذ لأنهم آل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتراجمة القران.

والمواقف الثلاثة متكاملة ومتداخلة لأن الرفض العربي والإسلامي متحد في حقيقة مشتركة، والمتجلي بأوضح صورة في العراق فالمسلمون لا يعتقدون بحكومة معاوية إلا أهل الشام الذين ضللهم الإعلام الأموي والعرب أبدوا رفضاً قاطعاً لأي سلطة تجبرهم على القبول بأمر لم يأتوه طواعية وبإرادتهم، ومن هنا كان العراق مركز النشاط المعارض للحكم الأموي، المتمثل بمعاوية ومن بعده يزيد، وبالرغم من أن معاوية كان قد اشترى ولاء العديد من الزعامات القبلية فولى المُغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب حكم البلاد[٢٩]، لكن دهاء المُغيرة لم يكن ناجعاً في تحجيم دور المعارضة لمعاوية، فقام معاوية بحركة تكتيكية بعزل المُغيرة وتولية زياد بن أبيه، وقد نجح معاوية في الاستفادة من عقدة النسب لدى زياد فجمع له في ولايته الكوفة والبصرة اللتين يتألف منهما إقليم العراق آنذاك، وقد أظهر زياد مواهب إرهابية في تعذيب وقتل المعارضين لحكومة معاوية، وقد تميز بعدة وسائل للتعذيب والمضايقة مثل الأخذ على التهمة، وقتل البريء لإخافة المُعارض، كذلك استعمل حظر التجوال

والقتل الكيفي، وقد طبقه على فلاح خرج ليلاً للبحث عن بقرته الضائعة خلافاً لقراره بمنع التجول في الليل، كذلك قتل النساء، وهو غير مألوف عن العرب، إضافة إلى القتل بوسائل مخيفة كالتقطيع بالمناشير والسجن في سجون مكشوفة بلا سقوف تحت حرارة الشمس وبرد الشتاء للتعذيب، وكذلك الصلب وحز الرؤوس والتشهير بها وغيرها من الوسائل، ويُخبرنا (الطبري) أن وكيل زياد على البصرة وهو سمرة بن جندب أعدم ثمانية الآف من أهلها تطبيقاً لمبدأ زياد في القتل على التهمة[٣٠]، ويروى أن زياد أمر بقطع اللسان تطوير مبكر لفن التعذيب يدل على السرعة التي تقدمت بها الدولة الأموية في طريق تكاملها كمؤسسة قمعية [٣١].

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال:" تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس" [٣٢]، ومناط الشبه هو شدة عمر التي استوحاها زياد في حكم العراق، ومن المعروف مع ذلك أن شدة عمر لم تقترن بحالات قتل كيفي، أو تعذيب وإنما كانت بدرجة من الحزم والضبط جعلته مُهيباً في عيون الناس، ومناط الإفراط هو أن شدة عمر تحولت عند زياد إلى إرهاب دموي استوحاه الحجاج، ومضى فيه إلى مداه الأبعد، والحجاج نسخة متطرفة من زياد، وعلى يده أصبح الإرهاب حالة يومية شاملة يعيشها الناس على اختلاف فئاتهم ولمختلف الأسباب من سياسية وعادية، وقد انشأ سجن(الديماس) المشهور في الكوفة، حيث يذكر المؤرخون أنه كان بلا سقوف ولا غرف فكان السجناء يتكدسون فيه دون حاجز فيما بينهم، وقد فُتح السجن بعد موته، ويختلف الرواة في تقدير عدد من وجد فيه، اقلهم يقول إنهم أكثر من عشرين ألف سجين، وقال الآخرون إنهم ثلاثة وثلاثون ألفاً، ونقل أبن عساكر رواية لمُحدث يُدعى أبن الإعرابي إنهم كانوا ثمانين ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة[٣٣]، وكان التعذيب يطبق على الأسرى والمعتقلين تبعاً لحالاتهم لكن الشكل السائد لإرهاب الحجاج كان القتل الكيفي بوسيلته الشائعة وهو قطع الرأس بالسيف، وأضاف الحجاج الصلب بعد القتل للأشخاص الذين لهم وزن خاصةً في حركة المعارضة، ومن أبرز مظاهر العنف السياسي لدى الحجاج هي كالآتي:

١. قطع الرؤوس:

وقد بدأها الأمويون في زمن معاوية ويقال أن أول رأس قُطع وحُملَ في الإسلام هو رأس (عمرو بن الحمق الخزاعي) أحد أتباع الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقد قتله زياد بن أبيه [٣٤]، ومن الحوادث المشهورة في هذا الباب قطع وحمل رأس الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) وأصحابه بعد معركة الطف في كربلاء [٣٥]، فوسيلة القمع عند الحجاج قطع الرأس، ويقدر المؤرخون عدد من أعدمهم في غضون العشرين سنة التي حكم فيها العراق والمشرق ما بين مئة ألف ومائة وعشرون ألف وطريقته بالإعدام قطع الرأس بالسيف، والذبح من الرقبة أو القفا في حالات؛ حيث قام الحجاج بعد قتله (عبد الله بن الزبير) بقطع رأسه وإرساله إلى عبد الملك بن مروان بعد أن عرى الجثة وصلبها حتى تعرت العظام من اللحم[٣٦]، وقيل أن الحجاج طلب الصحابي (كميل بن زياد النخعي) طلباً شديداً فلم يقدر عليه فقيل له: أن أردته فأمنع قومه العطاء فمنع النخع العطاء، وقال: لا أعطيكم حتى تأتوني به، فبلغ ذلك كميل بن زياد في موضعه الذي هو مستتر فيه، فأرسل إلى قومه فخرج إليه، فقال له: أنت كميل بن زياد، فقال كميل: نعم، فقدمه وأمر أبا جهم أبن كنانة فضرب عنقه[٣٧]، كذلك يروى أن : التابعي (سعيد بن جُبير) لما جيء به إلى الحجاج، قال له الحجاج: أنت شقي ابن كُسير، فأجابه سعيد: أن أمي اعرف بي سمتني سعيد بن جبير، ثم قال له الحجاج: ما تقول في أبي بكر وعمر هما في الجنة أم في النار؟ أجابه: لو دخلت الجنة ونظرت إلى أهلها لعلمت من فيها، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها، فقال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لستُ عليهم بوكيل، فقال له الحجاج: أيهم أحبُ إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي، قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علمُ ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم، ثم قال له الحجاج: أبيت أن تصدقني؟ فأجابه سعيد: بل لم أُحب أن أكذبك، ثم قال له: أيُ قتلة شئت؟ قال له: اختر لنفسك فإن القصاص أمامك، ثم أمر بقتله، قال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، فقال الحجاج: شدوا به إلى غير القبلة، قال سعيد: أينما تولوا فثم وجه الله، قال الحجاج: شدوا به إلى غير القبلة، قال سعيد: أينما تولوا فثم وجه الله، فقال الحجاج: كبوه

على وجهه، قال سعيد: منها خلقناكم ومنها نعيدكم، ثم ذبحوه من القفا[٣٨]، كما أحتز رأس (عبد الرحمن بن الأشعث) مع الأسرى الخوارج الذين ضربت أعناقهم وأرسل برؤوسهم إلى الحجاج ومن ثم إلى عبد الملك[٣٩].

٢. الجلد والتشهير:

والضرب بالسوط هو الجلد، وينفذ في المضروب واقفاً أو مبطوحاً، وقد يقنطر ويُضرب، فقد ضرب الحجاج بعض الصحابة والتابعين فجلد الصحابي (عطية العوفي) حين خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج في وقعة دير الجماجم[*****]، فلما انهزم جيش ابن الأشعث هرب عطية إلى فارس فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن: ادعُ عطية فإن لعن علي بن أبي طالب وإلا فاضربه أربعمائة سوط، وأحلق رأسه ولحيته، فأبى عطية أن يفعل فضربه أبن القاسم السيّاط، وحلق رأسه ولحيته[٤٠]، والتابعي (عبد الرحمن بن أبي ليلى) حيث استعمله الحجاج على القضاء ثم عزله، ثم ضربه ليسبّ أبا تراب فأبى فجلده أربعمائة سوط[٤١].

٣. تقطيع الأوصال والصلب:

ويشمل قطع اليدين والرجلين واللسان، وقد توسع الحكام الأمويين في هذه الوسيلة فكان المقطوع يُترك حتى يموت من تلقائه، فإذا لم يمُت قطعوا رأسه، حيث قام الحجاج بصلب (ماهان الحنفي الكوفي) بعد قطع يديه ورجليه إلى أن مات وهو مصلوباً [٤٢]، ومن ضحاياه (مصدع أبو يحيى الأعرج) المعروف بالمعرقب الأنصاري حيث عرض عليه سبُّ علي فأبى ذلك فقطع[٤٣] عرقوبه[******].

المطلب الثاني: العنف لإغراض أخرى

التعذيب بالقصب: لما حُمل أسرى ثورة أبن الأشعث إلى الحجاج قال لحاجبه: قدم إلي سيدهم (فيروز بن الحصين) فقال له الحجاج: أبا عثمان ما أخرجك مع هؤلاء؟ قال فتنة عمت الناس، فقال أكتب لي أموالك، قال: ثم ماذا؟ قال أكتبها أولاً، قال: ثم أنا آمن على دمي؟ قال أكتبها ثم أنظر، قال: أكتب يا غلام ألف ألفي ألف حتى ذكر مالاً كثيراً، فقال الحجاج أين هي؟ وعند من هي؟ قال: لا والله لا جمعت

بين مالي ودمي، فأمر الحجاج فعذب بأنواع العذاب، وكان من جملة ما عذب به أن يشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يُجر حتى يجرح جسده، ثم ينضح عليه الخل والملح، فلما أحس بالموت قال: إن الناس لا تشك إني قتلت، ولي ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً، فأظهروني للناس ليعلموا إني حي فيؤدوا المال فأخرج، فصاح في الناس: من عرفني فقد عرفني، أنا فيروز إن لي عند أقوام مالاً، فمن كان لي عنده شيء فهو له، وهو منه في حل، فلا يؤدين أحداً منه درهماً، ليُبلغ الشاهد الغائب، فأمر به الحجاج فقُتل [٤٤].

١. العنف الأدبي:

وأما العنف الأدبي فقد قام الحجاج في سنة ٧٤هـ بإذلال أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من المهاجرين والأنصار بختم أعناقهم وأيديهم كما يختم أهل الذمة من اليهود والنصارى، حيث ختم في عنق (أنس بن مالك) بالرصاص، وختم أيضاً في عنق (سهل بن سعد الساعدي الأنصاري) وختم في يد (جابر بن عبد الله الأنصاري) يريد إذلالهم بذلك وأن يجتنبهم الناس ولا يسمعوا منهم [٤٥].

المبحث الثالث: دوافع استخدام العنف لدى الحجاج بن يوسف الثقفي

المطلب الأول: الدافع السياسي

أن العنف الذي قام به الحجاج هو العنف المؤسسي الذي تُعبر عنه ممارسات بعض الولاة والحكومات خروجاً عن الدساتير والمواثيق والشرعية التي اقتضتها لنفسها فأخذ الحجاج مسلكاً في العنف كمسلك زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد حيث اقتدى الحجاج بزياد بن أبيه في إعدام النساء، وكن قد نشطن في صفوف الخوارج واقتبس طريقة زياد أيضاً في توسيع المسؤولية الجنائية لتشمل أقرباء المطلوب من الأبرياء، كما أتبع سياسته في منع التجمهر، وكان يمنع الناس من الركوب مترادفين، وألزم كل رجل أن يركب وحده، ومن أبشع إجراءاته القمعية إنزال الجنود مع العوائل بدلاً من أن يبني لهم معسكرات خاصة بهم يعيشون فيها[٤٦]، وكان هذا

الإجراء من أسباب ثورة عمت العراق والمشرق هي ثورة أبن الأشعث وكانت من خارج صفوف المعارضة، وقد قام بها وقادها نفس أتباعه وأعوانه من العراقيين، وانضم إليها الناقمون على سياسة الحجاج وبني أمية في بلدان المشرق ولما بني مدينة واسط استحدث جوازات دخول للقادمين إليها [٤٧]، كان كل إنسان في عهد الحجاج عرضة للسجن أو القتل أو الإبعاد لأي تصرف لا يرضى عنه الوالي حيث وقف الوعي اللقاحي مشدوداً أمام ظاهرة الحجاج، وكان لم يفق بعد من صدمة زياد وأبنه عبيد الله، ولم تنجح إجراءات القمع الاستثنائية في حمل الناس على الهدوء فكانت حركات التمرد مستمرة طيلة حكمه، وشارك فيها الخوارج بنشاط- بينما انكفأ الشيعة لالتقاط الأنفاس- وكانت أكبر الثورات هي التي قادها عبد الرحمن بن الأشعث واشترك فيها أهل العراق على اختلاف مواقفهم السياسية وأوضاعهم الاجتماعية وكانت آخر معاركها وأضخمها وهي معركة دير الجماجم التي دامت مئة يوم، ولم يتوصل الحجاج إلى كسبها إلا بعد أن توصل إلى شراء بعض الأطراف في معسكر الثوار[٤٨]، لكن الحجاج أتبع سياسة قمع استثنائي في تاريخ الإسلام، ولاشك أنه اتصف بخصائص جلاد هي التي جعلته على غرار خاص للجلادين المسلمين، وينبغي أن نضع هنا مسألة رد الفعل الذي جوبه به قمع الحجاج من جانب جمهور كان لا يزال حديث العهد بعصر اللاسلطة واللقاح، فضلاً عن ظهوره كنقيض لشريعة مستجدة قننت القمع في حدود لا تسمح بانفلات من هذا المستوى، والمبدأ الأساسي الذي كان يسير عليه هو مبدأ الطاعة المطلقة لولي الأمر، فالأمر الذي يصدره الحاكم لا يناقش ولا يجادل بل ينفذ فوراً مهما يكن تافهاً، والحجاج يضرب مثلاً للأمر التافه الواجب النفاذ وإلا أهدر دم المواطن[٤٩]، فيقول: "والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه"، ومهما يكن فالحجاج تبلور في الوعي الإسلامي على غرار متفرد للقمع الدموي، والنظر إليه من هذه الجهة يمثل نظرة الناس إلى حكامهم بوصفهم ورثة الحجاج، ويروى[٥٠]، أنه لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء والعويل، فأمر الحجاج بالناس فجمعوا إلى المسجد ثم صعد المنبر، فقال:"يا أهل مكة بلغني استكباركم واستفظاعكم قتل أبن الزبير، إلا وإن أبن الزبير كان من

خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها فخلع طاعة الله، وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة، وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، فلما عصاه أخرجه من الجنة، وآدم أكرم على الله من أبن الزبير، وأن أبن الزبير غير كتاب الله، فقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

المطلب الثاني: الدافع الديني

والذي يقرأ سيرة حياة الحجاج والقسوة التي كان يتمتع بها والطغيان الذي تمكن منه يُخيل إليه أن هذا الرجل لم يكن يعرف أمور دينه، ولم يتفقه في أمور الشريعة، ولكن الحقيقة أن الرجل كان على علم بأمور الدين بل كان والده هو الذي يحثه على حفظ القرآن الكريم، والالتزام بالشريعة، ولكنه مع ذلك كان شديد التناقض مع نفسه، وهذا الطاغية المستبد كانت خطبه الدينية تدل على فهمه الجيد للدين، حيث نجد أنه يلتمس من السُّنة النبوية سنداً لممارساته القمعية فقد سأل الصحابي (أنس بن مالك) عن أقصى عقوبة عاقب بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فحدثه حديث (العَرَنيين) بفتح العين والراء وهم جماعة وفدوا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) متظاهرين بالإسلام وتقبل إسلامهم ولما خرجوا ارتدوا عن دينهم ولقوا في طريقهم راعياً كان يرعى الغنم للنبي فمثلوا به وغرسوا الشوك في عينيه ووجه إليهم قوة ساقتهم إليه ففعل بهم مثلما فعلوا بالراعي، يقول أنس أن الحجاج بعد أن سمع حديث العَرَنيين خطب في الجمعة فقال: " تزعمون إني شديد العقوبة، وهذا أنس حدثني عن رسول الله أنه قطع أيدي رجال وأرجلهم وسمل أعينهم"، فقال أنس:" فوددت إني مت قبل أن أحدثه"[٥١]، وقد استاء الحسن البصري لما بلغه حديث أنس، وقال ليته لم يُحدثه، ومن ثم جرى الفقهاء على التحرج في رواية هكذا أخبار حتى لا يساء استغلالها، نتيجة استغلال الحجاج لهذه الرواية لكي يعطي لنفسه المبرر والشرعية الدينية لكافة أعماله الوحشية تجاه المسلمين، من خلال هكذا روايات عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه.

الخاتمة

يتضح مما تقدم أن ظاهرة توظيف الدين لخدمة هدف الاستحواذ على السلطة السياسية عرفتها الشعوب منذ ظهور الجماعة السياسية الأولى وحتى في المدن والإمبراطوريات القديمة والحديثة، والدولة الدينية في العصور الوسطى في أوربا وآسيا وأفريقيا وحتى في زمننا الراهن، إذ أن استخدام العنف وتبريره يستدعي الالتواء في الخطاب وقدرة سياسية على المناورة بالحدث لغرض تمرير العنف ومخططه، والإفلات من كل إدانة سواء شرعية أو سياسية أو اجتماعية ويتحرك العنف في مخططه على ضوء مشروع سياسي يستند إلى مجموعة من القيم الحاثة على العنف والدافعة إلى مقارنته، وتتبناه أفراد وجماعات تنطلق من قناعات إيديولوجية، وتتحرك على مستوى استراتيجي يتجاوز مجرد أعمال أو حالات ثأرية، بل هي ثقافة موروثة عن هذه الإيديولوجية أو تلك انتقلت بفعل تطورات سياسية واستحقاقات تاريخية إلى العمل السياسي بكل دموية، فالحجاج بن يوسف الثقفي مارس العنف لدافعين الأول سياسي بحت وهو تثبيت دعائم الدولة الأموية وتركيز السلطة بيد الخلفاء الأمويين فاستعمل كل أساليب العنف المشروعة والغير مشروعة ضد كل من يعارض هذه السلطة، حيث يرى بتكفير الخارج على السلطان وطرده من الملة لذلك كان يرى ما يفعله تقرباً لله يرجو به الأجر، وهذا ما يدل عليه من خطبه وأقواله وأفعاله، وأما الدافع الثاني فهو ديني بحت حيث يفسر البعض تناقضاً في فعل الحجاج بقتله الناس، وبين مواعظه التي كان يلقيها في خطب الجمعة، فكان مذهب الحجاج هو تكفير من يخالف أمر الحاكم وبالغ الحجاج في شأن الطاعة وقمع همم الناس ونفوسهم وغاياتهم فوافق الأمويين في أعمالهم، وأذهب بين الناس أن الخلافة اصطفاء من الله فلا يجوز الخروج على السلطان، وأما من خرج فقد حل دمه وسُمي كافراً، وشاع مذهب الحجاج في تكفير الخارج على السلطان بعدِّه شيوعاً كبيراً، وكان قد ابتدأ قبله هذا المذهب لكنه ثبَّته وثبت فكرة الاصطفاء والحق الإلهي، وبالغ في تعظيم السلطان حيث اعتبره خليفة الله في أرضه، فقد كتب في كتابه إلى عبد الملك بن مروان: "إنّ خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم" [٥٢]، فكان يعتبر منزلة عبد الملك أعلى من منزلة رسول الله، إذ يقول: "أيها

الناس أيهما أعظم؟ خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم، والله لم تعلموا فضل الخليفة" (٥٣).

وهكذا أخذ الحكام يلجأون إلى طلاء موقفهم بالدين مستندين إليه في أن يكرهوا الآخر على التسليم بأنه إذ يقف ضدهم فهو يقف ضد الدين، والوقوف ضد الدين يستدعي إلغاءه واختفاءه، هذه الأساليب العنيفة في الحكم استمرت تتصاعد وتيرتها بقسوة مرعبة وأخذت جرعات العنف تتزايد يوماً بعد آخر ومن حاكم إلى آخر، وأصبحت نصوص الدين بما هو إلهي ومقدس وبما هو سيرة عطرة للعهد النبوي أصبحت خلف الظهور لكراسي الحكم والسلطان، فهذا عبد الملك بن مروان حين علِمَ أنه بويع بالخلافة، وأفضى الأمر إليه وكان المصحف بين يديه أطبقه قائلاً: "هذا فراقٌ بيني وبينك" (٥٤)، وسار الولاة على سُنة ملوكهم..، فالحجاج أحد الولاة لعبد الملك والمتربي على يديه يقول مُخاطباً أهل العراق: "والله لا أمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه" (٥٥).

واتساقاً مع هذا الموقف فإننا نرى عبد الملك بن مروان وهو على فراش الموت يوصي أبنه الوليد بالحجاج خيراً: "وأنظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر، وهو سيفك يا وليد، ويدك على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، أنت إليه أحوج منه إليك، إذا أنا مُت فأدعُ الناس إلى البيعة، فمن قال برأسه هكذا، فقل بسيفك هكذا" (٥٦)، وهكذا نجح الحجاج في توظيف العنف والقوة وتوظيف أداتي الترهيب والترغيب للاستحواذ على السلطة السياسية التي كانت الهدف الأسمى لكل حاكم يسعى للوصول إليها، فقد كانت الحياة السياسية وقتذاك معروفة بالصراعات والتنافرات، واستخدام العنف لفرض الرأي على الآخرين مما ساعد الحجاج على القيام بهذه الأفعال والانتهاكات بحق الإنسانية من دون أن يقف بوجهه أحد أو يخالفه الرأي.

الهوامش

٢. ابن منظور، لسان العرب، ط٣، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت)، ص٣٠٧.
٣. النووي (ت٦٧٦هـ)، شرح صحيح مسلم، دار القلم، (بيروت، ١٩٨٧)، مج١٥، ص٣٨٣.
٤. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط٤، المكتبة التجارية الكبرى، (القاهرة، د.ت)، ج٣، ص١٧٨.
٥. متروك الفالح، العنف والإصلاح الدستوري في السعودية، مجلة المستقبل العربي، العدد (٣٠٨)، السنة (٢٧)، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٤)، ص٦-٧.
٦. ماجد الغرباوي، تحديات العنف، ط١، شركة العارف للمطبوعات، (بيروت، ٢٠٠٩)، ص٥٠.
٧. نقلاً عن: صادق الأسود، علم الاجتماع السياسي، أسسه وأبعاده، دار الحكمة للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٩١)، ص ٥٨٩-٥٩٠.
٨. تيد هندريش، العنف السياسي: فلسفته، أصوله، أبعاده، ترجمة عيسى طنوس وآخرون، ط١، دار المسيرة، (بيروت، ١٩٨٦)، ص٣٢.
٩. للمزيد ينظر: الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، المحاسن والأضداد، مطبعة السعادة، (مصر، ١٩١٢)، ص١٨٢، ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٧هـ)، العقد الفريد، ط١، مكتبة مصر، (القاهرة، ٢٠٠٨)، مج٣، ص٤١٩.
١٠. محمود زيادة، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ط٦، دار السلام للطباعة والنشر، (القاهرة، ٢٠٠٨)، ص٣١.
(*) المُبير: يُقصد به المبيد أو المهلك. للمزيد ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٨١.
١١. ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مج ٣، ص٩٧.
١٢. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب، المطبعة الأزهرية، (القاهرة، ١٣٠٣هـ)، ج٢، ص٩٥-٩٦.
١٣. ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مج ٣، ص٣٥.
١٤. للمزيد ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٧٧)، ج٨، ص٣٨١، عبد القادر المعاضيدي، واسط في العصر الأموي (٨١هـ- ١٣٢هـ)، ط١، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٦)، ص١٧٠.
١٥. البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، مطبعة الموسوعات، (د.م، ١٩٠١)، ص٢٩٨.

١٦. للمزيد ينظر: الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص٣٤-٣٥، عبد القادر المعاضيدي، واسط في العصر الأموي، ص٩٧.

١٧. ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، المعارف، ط١، منشورات الشريف الرضي، (إيران، ١٤١٥هـ)، ص٢٣٨.

(**) هو روح بن زنباع الجذامي، كان من أمراء الشام وكان عبد الملك بن مروان يستشيره في أموره فكان كالوزير له لا يكاد يفارقه. للمزيد ينظر: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ط٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٣)، مج٥، ص٦١.

(***) السرادق: هو الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشعر. للمزيد ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٩٥، إبراهيم مصطفى، احمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، (تركيا، د.ت)، ص٦٨٨.

١٨. للمزيد ينظر: ابن نباتة (ت٣٧٤هـ)، سرح العيون، شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة بولاق، (د.م، ١٢٧٨هـ)، ص١٠٤، محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط٣، دار المعرفة، (بيروت، ١٩٧١)، مج٣، ص٣٥٢.

١٩. للمزيد ينظر: الذهبي، شمس الدين (ت٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ج٤، ص٨١١ (حوادث ٧١هـ)، ابن نباتة، سرح العيون، ص١٠٣-١٠٤.

(****) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن كلاب الأسدي، وأمه كرمان بنت أُنيف، قُتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي عام٧١هـ. للمزيد ينظر: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج٤، ص٣٢٥.

٢٠. (١) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ط٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٦)، ص٢٢.

٢١. ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال، مطبعة السعادة، (مصر، ١٣٣٠هـ)، ص٣١٧.

٢٢. ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، (بيروت، ١٩٩١)، ج٥، ص٣٤٠.

٢٣. للمزيد ينظر: اليعقوبي (ت٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، مطبعة الغري، (النجف، ١٣٥٨هـ)، ج٣، ص١٨، ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ٢٠٠٤)، ج٤، ص٤٠.

٢٤. دكسن، عبد الأمير عبد حسين، الخلافة الأموية (٦٥هـ- ٨٦هـ)، دراسة سياسية، ط١، دار النهضة العربية، (بيروت، ١٩٧٣)، ص٢٣٣.

٢٥. ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج٥، ص٩.

٢٦. للمزيد ينظر: الطبري (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، ط٢، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٣)، مج٣، ص٥٤٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٤، ص٥٢، ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج٥، ص ٩.

٢٧. للمزيد ينظر: ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي- مؤسسة التاريخ العربي، (بيروت، ١٩٧١)، ج٣، ص٤١، ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، د.ت)، ج١، ص٣٨٢.

٢٨. للمزيد ينظر: ابن خلكان (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت)، ج١، ص١٥٥، ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص١٧٤.

٢٩. محمود زيادة، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ص٤١١.

٣٠. إبراهيم محمود، الفتنة المقدسة، عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية، ط١، منشورات رياض الريس، (بيروت، ١٩٩٩)، ص١١٠.

٣١. الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مج٣، ص٢٠٨.

٣٢. محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، ط٥، دار التعارف للمطبوعات، (بيروت، ٢٠٠٠)، مج١٠، ص٣٢٤.

٣٣. للمزيد ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٥٥، الجاحظ، البيان والتبيين، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة، ١٣٦٧هـ)، ج٢، ص٥١.

٣٤. للمزيد ينظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف، دار التراث، (بيروت، ١٩٦٨)، ص٢٧٤، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ج٤، ص٨٠، ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مج٣، ص٤٤٢.

٣٥. ابن الأثير الجزري، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق خليل مأمون، ط١، دار المعرفة، (بيروت، ٢٠٠١)، ج٣، ص٣٦٧-٣٦٨.

٣٦. للمزيد ينظر: عبد الرزاق الموسوي المقرم، مقتل الإمام الحسين (ع)، ط١، انتشارات المكتبة الحيدرية، (إيران، ١٤٢٥هـ).

٣٧. للمزيد ينظر: ابن سعد (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، (بيروت، ١٩٥٨)، ج٥، ص١٦٩، البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، انساب الأشراف، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، (بيروت، ١٩٧٤)، ج٥، ص ٣٦٨، محمود زيادة، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ص٥٩.

٣٨. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥، ص٢٥٥.

٣٩. للمزيد ينظر: ابن اعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج٧، ص١٠٦-١٠٧، محمد حرز الدين، مراقد المعارف، ط٢، انتشارات سعيد بن جبير، (إيران، ١٣٨٠هـ)، ج١، ص٣٥٢-٣٥٣.

٤٠. للمزيد ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٤، ص٩٥، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤، ص٦٣٤، ابن خلدون، المقدمة، ج٣، دار صادر، (بيروت، ١٩٩٩)، ص٥٢.

(*****) وقعة دير الجماجم: وهي واقعة دارت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث الذي خرج على سلطانه عام ٨٢هـ. للمزيد ينظر: ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج١٢، ص٣٢٠.

٤١. محمد حسن الكشميري، مع الصادقين، ط١، منشورات ناظرين، (إيران، ٢٠٠٥)، ص٣٧٦.

٤٢. المامقاني، تنقيح المقال، ج٢، مؤسسة إسماعيليان، (إيران، د.ت)، ص١٤٨.

٤٣. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار التراث العربي، (بيروت، د.ت)، ج٤، ص١٦.

٤٤. المصدر السابق، ج٤، ص٨٣.

(******) العرقوب من الإنسان: العصب الغليظ الموتر فوق عقب الإنسان. للمزيد ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٢٠.

٤٥. للمزيد ينظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مج٣، ص٦٤٧، ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٥٠.

٤٦. للمزيد ينظر: ابن الأثير الجزري، أُسد الغابة، ج١، ص١٥٠، جعفر السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء، ط١، مؤسسة الإمام الصادق (ع)، (إيران، ١٤١٨هـ)، ج١، ص١٢٧.

٤٧. عبد القادر المعاضيدي، واسط في العصر الأموي، ص٩٨.

٤٨. للمزيد ينظر: أبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، كتاب الأغاني، ط٢، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ١٩٩٧)، ج٧، ص٦٦، البلاذري، انساب الأشراف، ج١١، ص٢٧٩.

٤٩. محمود الجومرد، الحجاج رجل الدولة المفترى عليه، ط١، منشورات شركة مطبعة الأديب البغدادية المحدودة، (بغداد، ١٩٨٥)، ص١٤٩.

٥٠. إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة (١٨٣)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت، ١٩٧٨)، ص١٧٤.

٥١. للمزيد ينظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤، ص٥٠، ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج٤، ص٣٣٩، محمود زيادة، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، ص٦٧.

٥٢. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط٢، دار الفكر، (بيروت، د.ت)، ج١، ص٢٢٥.

٥٣. المصدر السابق، ص٤٤٦.

٥٤. ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مج٥، ص٧٠.

٥٥. ابن نباتة، سرح العيون، ص١٢٢.

٥٦. للمزيد ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي، مج٣، ص٣٢٨، المسعودي، مروج الذهب، مج٣، ص١٧٠، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، (القاهرة، ١٩٦٤)، ص٢٢٠.